حكايات بطولية للأطفال (١٥)

عُرس الرّوح



الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود

تأليف:
روضة الفرخ الهدهد

حكايات بطولية للأطفال (١٥)

عُرس الرّوح

الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود

سأحمل روحي على راحتي ... وألقي بها في مهاوي الرّدى
فإمّا حياة تسرّ الصّديق ... وإمّا ممات يُغيظُ العِدى

تأليف:
روضة الفرخ الهدهد

رسوم : عبدالرؤوف شمعون
تدقيق النص : مريم مشعل

المراجـــع

* ديوان عبدالرحيم محمود الذي تولت نشره لجنة تكريم الشاعر الشهيد عام ١٩٥٨.
* كتاب النكبة / تأليف عارف العارف.
* عبدالرحيم محمود شاعراً ومناضلاً / تأليف الدكتور محمود شلبي.
* كتاب من أعلام الفكر والأدب الفلسطيني إعداد مكتبة بلدية نابلس العامة ١٩٧٥.
* القائد عبدالرحيم الحاج محمد بطل وثورة / تأليف زياد عودة.
* ديوان ابراهيم طوقان مقدمة الديوان بقلم فدوى طوقان.
* مصطفى مراد الدباغ بلادنا فلسطين الجزء الثالث.
* حياة تاريخ الأدب الفلسطيني من أول النهضة حتى النكبة / تأليف د. عبدالرحمن ياغي ١٩٦٨.
* كفاح عرب فلسطين تأليف عبدالكريم الكرمي «أبو سلمى».
* بطولات عربية من فلسطين : عيسى الناعوري وإبراهيم القطان.
* فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية / تأليف عيسى السفري ١٩٣٧.
* كفاح الشعب الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨ عبدالقادر ياسين.
* كفاح شعب فلسطين خلال نصف قرن / تأليف صالح مسعود أبويصير.
* عن الأدب والأدب الشعبي الفلسطيني / تأليف توفيق زياد.
* فلسطين عبر ٦٠ عاماً / تأليف إميل الغوري.
* الموسوعة الفلسطينية الجزء الثاني.
* مقابلات ميدانية مع معارف الشهيد.

رقم الإيداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية

(٩٨ / ٢ / ١٩٨٨)

رقم الإجازة المتسلسل : ١٠٠ / ٢ / ١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾

في ليلةٍ مقمرةٍ من ليالي الربيع، كان الشيخُ محمود عبدالحليم يجلسُ في غرفةٍ متواضعة في بيته، يتلو آياتٍ من القرآنِ الكريمِ، وفي الغرفةِ المجاورةِ كانت الأصواتُ تَرتفعُ وتنخفضُ بصورةٍ غير عاديةٍ. كان الوقتُ متأخراً، لكنَّ الأولاد الأربعة لم يناموا بعد...

وكانت جدَّتهم العجوزُ تروحُ وتجيءُ قلقةً مضطربةً، تبسمِلُ وتقرأُ ما تيسَّرَ لها من القرآن... بينما كانَ الأولادُ يشعرونَ بفرحٍ يشوبُهُ خوفٌ كبيرٌ وهم يرون «القابلة» تساعدُ والدتهم على الولادة...

وانطلق الابنُ الأكبرُ يزفُّ البشرى لوالدِهِ الشيخ .. أرسلتْهُ جدتُه لينْقُلَ إليهِ الخبرَ السَّعيدَ... دَخَلَ الولدُ مندفعاً منادياً:

ـ أبي ... أبي ...

واستمر الشيخ في تلاوته غيرَ عابئٍ بابنه الواقف بالباب وبلهفتِهِ الظاهرةِ للحديث .. فلما أنهى القراءة صدَّق وحمد الله، ثم قام متجهاً إلى حيثُ الوليدُ الجديدُ مهنِّئاً أمه على سلامتها، وحملَ الوليدَ

فكبَّرَ وذكَرَ اسمَ الله في أذنيه وقال :

أُسمِّيهِ عبدَالرحيم[1]...

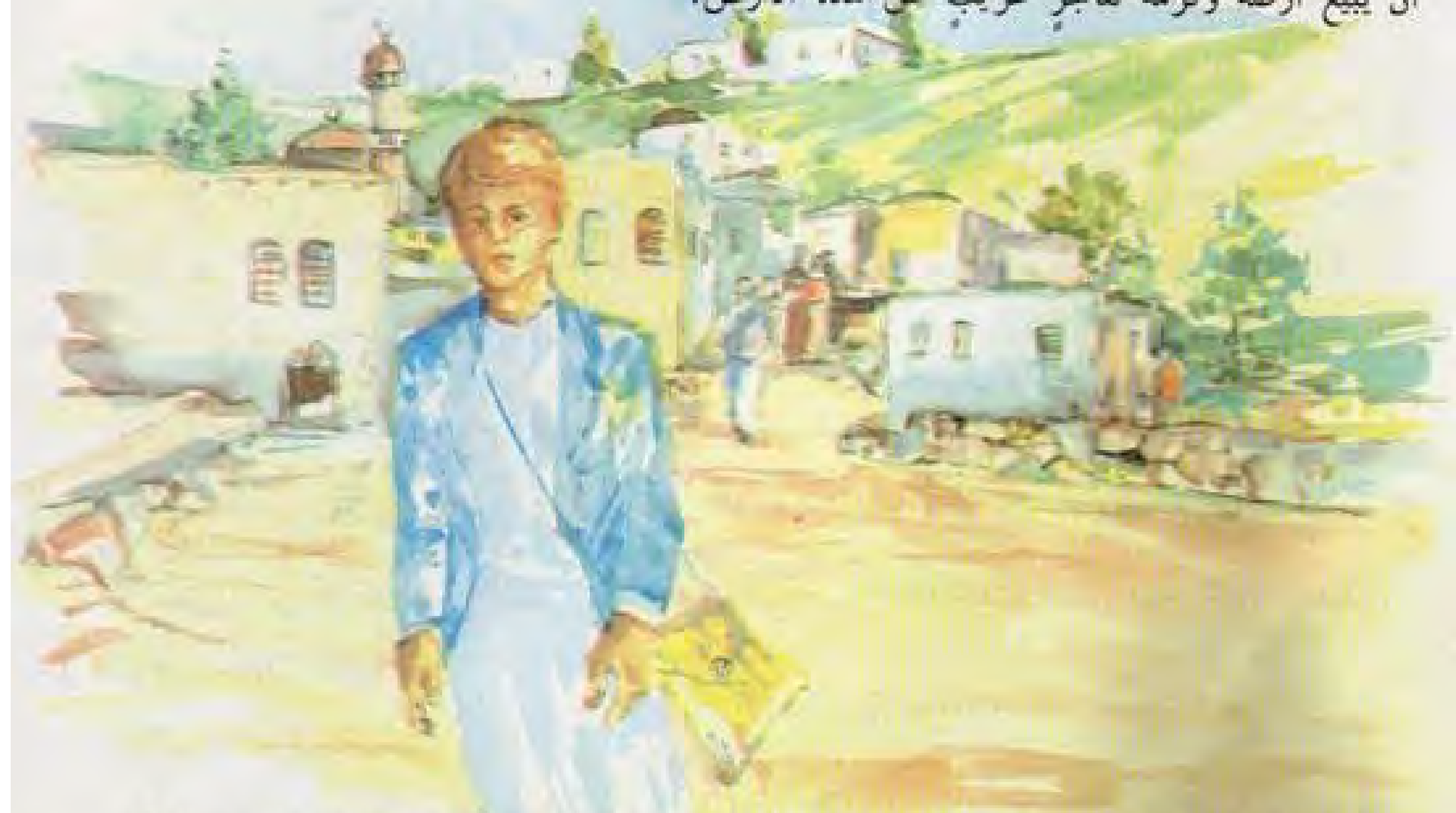
«٢»

مضتِ الأيامُ واشتدَّ عودُ الفتى عبدالرحيم، وحَمَلَ حقيبتَهُ القماشيةَ وانطلقَ مع إخوتِهِ إلى مدرسةِ القريةِ الصَّغيرة، وكانَ إذا ما تركَ المدرسةَ ظهراً انطلقَ إلى الجامعِ ليجلِسَ إلى والدِهِ الشيخِ يسمَعُهُ وهو يتحدَّثُ إلى رجالِ القريةِ، يعلِّمُهم تعاليمَ دينِهم وأحكامَهُ، ويُلقي عليهم الشِّعرَ العذبَ يحفظُهُ أو ينظُمه... وكانَ عبدالرحيم يسرُّ بذلك أيما سرور ويطرَبُ له كلَّ الطرب..

وفي يومٍ من الأيام، وفيما كانَ عبدالرحيم جالساً منصتاً إذ به يرى والدَه وقد ثارَ وغضبَ وارتفعَ صوتُه مهدداً متوعداً.. وقد استغربَ عبدالرحيم وكلُّ الحضورِ الأمرَ.. فهم لم يعهدوا من الشيخِ مثل هذا الغضبِ العارمِ، فما الذي حدث؟

كانَ أحدُ الرجالِ قد همَسَ في أُذنِ الشيخِ كلاماً أثارَ غضبَهُ وانفعالَهُ، فأخذَ يقولُ بصوتٍ جهوري :

ـ أيها الاخوان ... لقد سمعتُ أن أحداً من أصحاب الأراضي في إحدى القرى المجاورةِ يريدُ أن يبيعَ أرضَهُ وكرمَه لتاجرٍ غريبٍ عن هذه الأرض.



اشتدّ عود الفتى عبدالرحيم محمود، فحَمَل شنطته القماشية وانطلق إلى المدرسة الابتدائية في عنبتا احدى قرى فلسطين.

---

(١) كانَ ذلك في قرية «عنبتا» من قرى فلسطين القريبةِ من مدينةِ طولكرم وكان عبدُالرحيم خامسَ أبناءِ شيخِ القرية وإمامِ مسجدها، وقد وُلِدَ عام ١٩١٣م.

وتعالت صيحاتُ الاستهجانِ من الجالسين حولَ الشيخ، وقد ساءَهم ما ساءَ شيخَهم، وأنكروا فعلةَ الرَّجل، وبعدَ أخذٍ وردٍّ، انبرى أحدُهم يقول:

ـ سيِّدي الشَّيخ .. إنْ كنتَ ترضى، نذهبُ لنعرفَ سببَ البيعِ، فإنْ كانَ ضِيقاً مالياً نعرِضُ عليه المعونَةَ، ونوقِفُ البيع.

ـ هذا رأيٌ حسن .. فعلى بركةِ الله ..

انطلقَ عبدُالرَّحيمِ إلى والديْه يخبِرُها بما سمعَ .. كانَ طولَ الطَّريقِ ينظُرُ إلى الأرضِ عن يمينه وشمالِه .. ينظرُ إلى كرومِ العنبِ على مدِّ البصرِ، وإلى العناقيدِ تتدلَّى من الأشجارِ، وإلى أشجارِ الزَّيتونِ اللامعةِ، وأشجارِ الفاكهةِ المثمرةِ، شاهدَ بئرَ الماءِ الذي يسقي النَّاسَ والمزارعَ، واقترب من بيوتِ الدجاجِ وأقنانِها، وجحورِ الأرانبِ واصطبلاتِ الخيولِ والأبقارِ، ثم دخلَ إلى أُمِّهِ قائلاً وهو يفكِّرُ:

ـ أُمِّي .. إذا باعَ أبي مثلاً هذه الأرضَ التي نسكنُ عليها فهل تغضبين؟ .. اندهشت الأُمُّ لسؤال ابنِها البريءِ السَّاذج، وقالت:

ـ إذا باعَها ـ لا سمحَ الله ـ فأينَ ستنامُ أنتَ وإخوتُك يا عبدَالرَّحيم؟.. ومن أين ستأكُلُ البندورةَ والبطاطا والبصلَ والخيار؟.

ـ ألهذا إذن كان والدي غاضباً على من أرادَ بيعَ أرضِهِ؟.

ـ ليسَ لهذا فقط .. ولكن إذا باعَ أصحابُ الأراضي الكبيرةِ أرضَهم، فأين سيعملُ الفلَّاحون الفقراءُ والأُجراءُ والعمَّالُ؟ ..

* * *

﴿٣﴾

ظلَّ عبدُالرحيم طولَ النَّهارِ وقسماً من الليلِ يفكِّرُ .. لقد أحسَّ أنَّه يحبُّ أرضَه كما يحبُّ والديه، ويكرهُ هؤلاءِ التجارَ الذين يشترون الأرضَ من أصحابِها ليبيعوها للغرباء .. الغرباءِ اليهود الذين سيمنعونَ أصحابَ الأرضِ وأولادَهم من الدُّخول إليها إذا اشتروها .. وسَرَحَ خيالُه فقال في نفسِه: وهل سيبقون على المساجد يا ترى؟، هل سيجدُ والدي مكاناً للصَّلاةِ وللحديثِ عن الدِّينِ؟.

كَبُرَتِ المشكلةُ في ذهنِ عبدالرَّحيم الصَّغيرِ، وكبُرَ معَها، ولكنَّه كان سَرعانَ ما ينساها عندما ينطلقُ للَّعبِ مع رفاقِهِ في الجبل.

كانَ عبدُالرحيم يحبُّ الخروجَ مع رفاقِهِ إلى أحدِ الجبالِ القريبةِ من قريتِه، يلعبِ وإياهم لعبةَ تسلُّقِ الجبالِ ثم الانزلاقِ إلى أسفلِها .. أو يختبئُ أحدُهم في أحدِ الكهوفِ ليكتشفَه الآخرون .. ولكنَّه وبينما كانَ في ذلكَ النَّهار يلعبُ مع رفاقِه، إذ به يراهم يتصايحونَ ويتراكضونَ خائفين؛ صاحَ أحدُهم:

- دوريةٌ انجليزيةٌ قادمةٌ في الأفقِ تثيرُ الغبارَ والرِّمال.

- وماذا في ذلك؟.

- نختبئُ في الحال، أو نعودُ إلى بيوتِنا فوراً قبلَ أن يقتربوا..

- ولماذا الخوفُ والفِرار؟.

قال رفيقُهُ وهو يدخلُ الكهفَ:

- سيظنّون أنّنا مع الثُّوارِ أو نعرفُ مخابئَهم وقد يبدأون في استجوابنا عمَّا نفعل؟ وأين نقيم؟ وأين هم آباؤنا وماذا يفعلون وهل رأينا الثُّوارَ وأين هم ..؟ وعشراتُ الأسئلةِ التي لا تنتهي..

في ذلكَ النَّهارِ عادَ عبدُالرحيم محمود إلى بيتِه، ونفسُهُ تمتلئُ حنقاً وغضباً، فهل سيحرمُهُ هؤلاء الانجليز أيضاً من اللعبِ وقتما شاءَ في الجبالِ أو في السُّهولِ؟.. إنَّه يحبُّ الانطلاقَ ويحبُّ اللعبَ ولا يحبُّ أن يخافَ من أحدٍ، وليسَ لرفاقِهِ أن يخافوا من الدَّورياتِ الانجليزيَّةِ أو يخوِّفوه منها..



الشيخ محمود والد عبدالرحيم يُعطي الدروس الدينية والوطنية في الجامع ويحضّ الفلاحين على عدم التفريط بوطنهم.



الدوريات الانجليزية تحدّ من حرية الأطفال الفلسطينيين في اللعب في جبالهم وكهوفهم، وذلك بملاحقتهم للسؤال عن الثوار.

عندما عادَ عبدُالرحيم إلى بيته أقبل على أمه يحدِّثُها بعنفوانٍ وغضبٍ ..

قالت له :

ـ دعني أشرَحْ لك الأسبابَ يا عبدَالرحيم ... إن فلسطينَ وبعد مولدك بقليلٍ دخلتها القواتُ الانجليزيةُ لتستعمِرَها وتحكمَها، وأكثرُ من ذلك أنَّهم أخذوا يجمعونَ اليهودَ من أنحاءِ العالمِ ليحضروهم إلى فلسطينَ ليقيموا فيها دولةً تكونُ كالسَّرطانِ في جسمِ الأمَّة العربيَّة المسلمةِ .. فهل فهمتَ الآنَ لماذا يحاربُ الثُّوارُ هذه القواتِ الانجليزيةَ؟ .. وهل فهمتَ لماذا غضِبَ أبوك على بيع أرض العرب للتُّجارِ اليهود؟!.

ـ أعرفُ يا أمِّي أعرف .. ولكنني مع ذلك أرفضُ أن أخافَ منهم أو أن أرضى بحكمهم.

دَخَلَ عبدُالرحيم الغرفةَ وفكرُه مشتتٌ .. ولكنَّه سرعانَ ما نسي كلَّ شيء عندما تناولَ كتاباً ليطالِعَهُ .. كانت ساعاتُ القراءةِ عندَه من أمتعِ لحظاتِ العمرِ .. معها يحسُّ أنه يمتطي ظهرَ جوادٍ عربيٍّ أصيلٍ يطيرُ بِهِ إلى كلِّ بقاعِ الدُّنيا ليستمتعَ بكلِّ ما يرى وما يسمع .. وقد كانَ يطيرُ أحياناً بحصانِهِ

إلى الجزيرةِ العربيةِ، إلى مكةَ والمدينةِ فيعيشُ أيامَ صدْرِ الإسلامِ، يعيشُ نزولَ الوحي على الرسول (ﷺ)، وهجرَتَهُ ومعاناتَهُ في نشرِ دعوتِهِ للدِّينِ الحنيفِ، يعيشُ عهدَ أبي بكرٍ الصِّديق وعمرَ بن الخطّاب، ويقف طويلاً أمام فتوحاتِ خالدِ بن الوليد ومعاركِه وضرارِ بن الأزور وشجاعتِهِ وبطولاتِهِ ..

وكانَ يعيدُ مراراً وتكراراً قصةَ فتحِ القدسِ وفلسطينَ ومعاركِ اليرموكِ ومؤتة، وقصةَ فتحِ الأندلسِ، على يدِ طارقِ بن زياد .. وكثيراً ما كان يحبُّ الانتقالَ والطيرانَ إلى عهد الصليبيين الذين احتلّوا فلسطينَ والقدس ليقرأ كيف حرَّرها صلاح الدين الأيوبي منهم ..

ولكنَّه وبينما كانَ في الغرفةِ يقرأ، إذ بأصواتٍ غريبةٍ تملأُ الدَّار والطُّرقاتِ الخارجيَّةَ .. فقفزَ من مقعدِهِ وأطلَّ من النافذةِ يستطلعُ الأمرَ.

كان والدُهُ عائداً إلى الدَّارِ مع عشراتٍ من الرِّجالِ والأولادِ والشَّباب يتحدَّثون بأصواتٍ غيرِ مفهومةٍ .. وقد أحسَّ عبدالرحيم بالخوفِ، فترك النافذةَ وأقفلَ كتبَهُ وجرى إلى الخارج.

قال الأبُ عندما رآه بصوتٍ فيه عنفٌ وغضبٌ :

ـ أينَ أنتَ يا عبدَالرحيم؟

ـ أدرسُ يا والدي ..

ـ وهل هذا وقتُ الدرسِ؟ ألا تعرفُ ما يجري في الخارج؟.

قال عبدالرحيم مندهشاً :

ـ لا يا أبي .. لا أعرفُ .. ماذا في الخارجِ؟.

ألا تعرفُ أن الدِّراسةَ قد تعطَّلت في كلِّ المدارسِ، وأنَّ الدكاكينَ والحوانيتَ قد أُقفلتْ في كلِّ المدنِ الفلسطينيَّةِ؟ .. ألا تعرفُ أن غداً هو موعِدُ إعدامِ ثلاثةٍ من أكرمِ أبنائنا؟ .. خُذْ هذه ..

وألقى الأبُ لابنِهِ بمجموعةِ أوراقٍ، حملها عبدُالرحيم وهو يقولُ :

ـ وهل حُدِّدَ يومُ غدٍ لإعدامِ «عطا الزِّير وفؤاد حجازي ومحمد جمجوم»؟.

ـ نعم، ونحنُ سنصلي غداً على أرواحِهم، فاستعدَّ لتكونَ معنا ..

دخَلَ عبدالرحيم المنزلَ كسيرَ القلبِ دامعَ العينين .. فهو يتابعُ أخبارَ هؤلاءِ الثَّلاثةِ منذُ اعتقلتهم القواتُ الانجليزيةُ، إثْرَ الحوادثِ الدَّاميةِ التي وقعت في مدينةِ القدس عند حائِط البُراق .. وهو يقرأ عنهم في الصُّحفِ ويسمَعُ عنهم في الإذاعةِ .. ويعرفُ أنهم قاموا مع عشراتٍ غيرهم للدفاع عن عروبة المسجدِ الأقصى وحائطِ البُراق .. هذا الحائطُ الذي طالما قرأ قصَّة إسراءِ الرَّسولِ (ﷺ) إليه على ظهر

«البُراق» من المسجد الحرامِ إلى المسجد الأقصى، والذي عَرَجَ منه إلى السماء .. وهو يعرِفُ أنَّ اليهود يحاولونَ فرضَ وجودِهم على هذا المكانِ للاستيلاءِ عليه، بحجَّةِ أنَّـهُ من أماكنِهم المقدَّسةِ. وهو يعرفُ كما يعرِفُ كلُّ أهلِ فلسطينَ وكلُّ الانجليزِ وكلُّ اليهودِ أن هؤلاءِ الشبابَ الذين دافعوا عن «البُراق» لمنعِ دخولِ اليهود إليه واحتلالِهِ، إنما يحمونَ مُقدَّساتِهم وجوامِعَهم وأراضيهم من هؤلاءِ اليهود .. فهل يكون غداً موعدُ إعدام الشُّبانِ الثَّلاثةِ؟ .. هل يكونُ هذا مصيرَ من يدافع عن أرضِهِ ووطنِهِ؟.



... مع القراءة كان يحسُّ انه يركبُ على ظهر جوادٍ أصيل فيطيرُ إلى كلِّ بقاع الدنيا .. يزور مكة والمدينة وبغداد وباريس وغرناطة واشبيلية ..



الشاب عبدالرحيم محمود وحيداً مع أبيات شاعره الكبير ابراهيم طوقان في قصيدة الثلاثاء الحمراء يحفظها ويرددها عن ظهر قلب.

والتفتَ عبدُالرحيم إلى الأوراقِ التي ألقاها والدُهُ .. وأخذَ يُقلِّبُها ليعرِفَ ما بها .. ولماذا أعطاهُ إياها والدُه؟.

ألقى عبدُالرحيم نظرة على الأوراق فإذا بها قصيدةٌ شعريةٌ بقلم الشاعر «ابراهيم طوقان» أمعَنَ النظرَ وقرأ، فإذا هي قصيدةٌ جديدةٌ بعنوان: «الثلاثاء الحمراء»، لم يقرأها من قبل .. طارَ قلبُهُ فَرَحاً فلا شيء عندَهُ يعادِلُ قراءةَ قصيدةِ شعرٍ، ولا أحب عنده من الشاعِرِ «ابراهيم طوقان» .. حَمَلَ الأوراقَ ودخَلَ غرفَتَهُ لا يريدُ أن يشارِكَهُ قراءَتَها أحدٌ. صحيحٌ أنَّ شعرَ ابراهيم طوقان لكلِّ الشَّعب العربي في فلسطينَ وخارِجِها، ولكنَّهُ عندَ عبدالرحيم شيءٌ آخر .. شيءٌ خاصٌ جداً.

❋ ❋ ❋

﴿٤﴾

في صباحِ اليوم التالي، ومنذُ صلاةِ الفجرِ، تجمَّعَ في مسجدِ القريةِ مئاتُ الرِّجالِ والشبابِ والأولاد .. صلَّى بهم الشيخ محمود ثم خطبَ خطبةً قوميةً، نوَّه فيها بغدرِ الإنجليز، ولصوصيَّةِ الصَّهاينة، ومحاولاتِهم سرقةَ أرضِ فلسطينَ لإنشاءِ وطنٍ قوميٍّ لليهودِ عليها .. وأكَّدَ فيها على أنَّ أبناءَ هذا الشَّعب لن يوفِّروا أرواحهم ودماءَهم في سبيل الحفاظ على عروبة فلسطينَ؛ والوقوفِ أمامَ الانجليز ومَنْعِ هجرةِ اليهودِ إليها ..

وبمرور الوقت كانَ المسجدُ يحتشِدُ بالمواطنين. ولشدَّ ما كانت دهشةُ عبدالرحيم عندما رأى والدتَهُ مع عشراتِ النِّساءِ يتقدَّمْنَ إلى ساحةِ المسجد .. كلُّ أهلِ قريةِ «عنبتا» اجتمعوا في المسجدِ وحوله ينتظرون الحدثَ الرَّهيب!!.. وازدادت دقَّاتُ قلب عبدالرَّحيم مع اقتراب السَّاعة وارتفاع صوتِ الرِّجالِ! بينما ارتفعَ صوتُ بكاءِ الأمَّهاتِ في الخارج .. وفجأة .. علا صوتُ المؤذِّنِ يؤذِّنُ .. كانت الساعةُ قد قاربت الثامنةَ صباحاً .. وسكَتَ الجميعُ .. إلاّ أصوات النَّحيبِ الحارَّةِ الصَّامتةِ .. وإلاّ صوتُ الشِّعرِ في قلب عبدالرحيم محمود يملأ جَنبيْهِ ويردِّدُ مع الشاعرِ «إبراهيم طوقان»:

أنـا سـاعـةُ النفس الأبيَّـةِ — الـفـضـلُ لي بـالأسـبـقـيَّـة
أنـا بِكْـرُ سـاعـاتٍ ثـلاثٍ — كـلُّهـا رمـزُ الـحـمـيَّـة
قَسَـمـاً بـروحِـكَ يـا فـؤادُ — صَعِـدَتْ جـوانبـهـا زكـيَّـة
عاشت نفوسٌ في سبيل بلادِها — ذهـبَـتْ ضـحـيَّـة

ففي ذلك اليوم وفي تمام السَّاعة الثَّامنة صباحاً وفي «سجن عكا» بعيداً جداً عن قرية «عنبتا» كان الجنودُ الإنجليزُ يسوقونَ «فؤاد حجازي» ليكونَ أوَّلَ من يُعْدَمُ في سبيلِ وطنِهِ فلسطين ..

بعدَ قليلٍ، وبعدَ أن هدأَ الوضعُ قليلاً، قامَ الشيخُ محمود يحدِّثُ الناسَ عن الجهادِ في سبيلِ الله .. وعن منزلةِ الشَّهيدِ عندَ ربِّه .. وقصَّ عليهم قصَّةَ إسراءِ الرَّسولِ من المسجد الأقصى إلى القدسِ على ظهرِ البُراق، وركَّزَ على أهمية المسجدِ الأقصى والموقعِ الذي توقَّف فيه «البراق» بانتظارِ عودةِ الرسول (ﷺ) من رحلتِهِ إلى السَّماءِ، وضرورةِ المحافظةِ عليهِ والدِّفاعِ عنه وعن كلِّ أرض فلسطينَ المقدَّسَةِ، وعدَمِ التَّفريطِ بأيةِ ذرَّةِ ترابٍ من ترابِ فلسطينَ .. نظَرَ الشيخُ إلى ساعتِهِ المعلَّقةِ في جيبه، كانت قد جاوزَتِ الثامنةَ والنصف، فَسَكَتَ، وأخذَ يقرأُ القرآنَ بصوتٍ هادئ .. فتأثرت الجماهيرُ، وتدفَّقتِ الدُّموعُ السَّاخنةُ بصمتٍ على وجوهِ الرجالِ ..وعلا صوتُ بكاءِ السَّيدات .. وفجأة .. اندفعت إحدى النِّسوةِ تزغردُ للشهيدِ وتقول ...

هذا يومُ عرسِ البطلِ .. يومُ عرسِ الشهيدِ .. يومَ تزفُّ روحُه الطاهرةُ إلى جنةِ الخلدِ ..

ورانَ صمتٌ ثقيلٌ قَطَعهُ صوتُ المؤذِّنِ .. فقد قاربت السَّاعةُ التَّاسعةَ صباحاً، موعدُ إعدامِ البطلِ الثاني «محمد جمجوم».

وضجَّت في صدرِ عبدالرحيم وبين أضلُعِهِ، أصداءُ أبياتِ الشَّاعرِ «ابراهيم طوقان»:


الجنود الانجليز يسوقون الشبان الثلاثة فؤاد حجازي ومحمد جمجوم وعطا الزير إلى المشنقة .

أنا ساعةُ الموتِ المشرف   كل ذي فعلٍ مجيدِ
بطلي يحطِّمُ قيدَه   رمزاً لتحطيمِ القيودِ
قَسَماً بروحِ محمَّدٍ   تلقى الرَّدى حلو الورودِ
قَسَماً بأمِّكَ عندَ موتِكَ   وهي تهتِفُ بالنَّشيدِ
ما نالَ مَنْ خَدَمَ البلادَ   أجلَّ من أجرِ الشَّهيدِ

وفي تمام السَّاعةِ التَّاسعةِ صباحاً وفي «سجن عكا» بعيداً جداً عن قريةِ «عنبتا» كانَ الجنودُ الإنجليزُ يسوقون «محمَّد جمجوم» ليكونَ ثاني من يُعدَمُ في سبيلِ فلسطين ..

بعد ساعة كاملة، وفي العاشرةِ كانَ عبدالرحيم يردِّدُ أبياتَ الشِّعرِ التي حفِظَها فيقول :

أنا ساعةُ الرجُلِ الصَّبورِ   أنا ساعةُ القلب الكبيرِ
بطلي أشدُّ على لقاءِ المو   تِ من صمِّ الصُّخورِ
قَسَماً بروحِك يا عطاءُ   وجنةِ الملكِ القديرِ
وصغارِكَ الأشبالِ   تبكي الليثَ بالدَّمعِ الغزيرِ
ما أنقذَ الوطنَ المفدَّى   غيرُ صبَّارٍ جَسورِ

وفي سجن عكا أُعْدِمَ البطلُ الثَّالث «عطا الزير» فخرجت الجماهيرُ من مسجدِ قريةِ عنبتا ومن كلِّ مساجِدِ مدنِ فلسطينَ وكنائسها في مظاهراتٍ تزفُّ فيها أرواحَ شهدائِها الثَّلاثة إلى بارئها.

غمرَ قلبَ عبدالرحيم إحساسٌ غريبٌ وهو يرى ويسمَعُ ما يسمع. لم يكن إحساساً واحداً، بل جملةَ أحاسيسَ مختلفة أخذت تتصارَعُ في داخلِه .. أُناسٌ يزغردونَ لاستشهادِ الأبطالِ، وأُناسٌ يبكون .. صلواتٌ تُتلى وأذانٌ يُرفَع، وأجراسٌ تُدق .. والإنجليزُ ماضون بالقتلِ والإعدامِ .. وأرواحٌ تزفُّ إلى السَّماء في يومِ عرسها، وأرضٌ تخضَّبُ بدماءِ شهدائِها .. حبٌّ للأبطال ونقمةٌ على الإنجليز .. حقدٌ على اليهودِ وثورةٌ على المستعمِرين المحتلِّين .. اعتزازٌ بوالدِهِ الشَّيخِ وبعلمِهِ وتعاليمِ دينِه الَّذي يؤكِّدُ على الجهادِ في سبيلِ الله وفلسطين، وإعجابٌ كبيرٌ بالشَّاعرِ «إبراهيم طوقان» ..

وأعادَ عبدُالرحيم في ذهنِه أبياتَ الشعرِ يُقسِمُ فيها الشَّاعرُ بأرواحِ الأبطالِ قَسَماً بروحك يا فؤاد .. قَسَماً بروح محمَّدٍ .. قَسَماً بروحك يا عطاء .. فثارتْ روحُهُ وسَمَتْ ولم تعدْ تعرِفُ السُّكينةَ ولا الهدوءَ ..

* * *

(٥)

لم يَنَمْ عبدالرحيم محمود في تلك الليلة قـط .. كانَ يستعدُّ للسَّفرِ في اليومِ التَّالي إلى نابلسَ حيثُ المدرسةُ الثَّانويَّةُ التي سيدرُس فيها .. كانَ استعدادُه للذَّهابِ إلى مدرسةِ النَّجاحِ في مدينةِ نابلسَ استعداداً آخر .. فمدرسةُ النجاحِ فيها الأستاذُ الشَّاعرُ «إبراهيم طوقان»، وفيها خبرةُ الأساتذةِ وخيرةُ الطَّلبةِ ..

لم يَنَمْ عبدُالرحيم محمود في تلك الليلة قط، ظلَّ مستيقظاً يقرأُ كلَّ ما يقعُ تحتَ يديهِ من كتبِ اللغةِ والشِّعر .. أمضى الليلَ مع الشُّعراءِ «أبي الطيب المتنبي وحافظ إبراهيم وطرفة بن العبد وصفيِّ الدِّين الحلِّي وأحمد شوقي» فقد كانَ لا يَملُّ قراءةَ الشعرِ أبداً .. ولكنَّ شخصاً آخر في البيتِ لم ينَمْ تلك الليلةَ أيضاً، تلكَ هي أمُّه .. كانت تجهِّزُ له ملابسَهُ وبعضاً من الزَّادِ ليأخذَهُ معه .. أعطتهُ كيساً صغيراً من الزَّعتر، وآخرَ من الميرميَّةِ، وبعضاً من الملوخيَّةِ الجَّافةِ .. وجهَّزت له مرطباناً من المربى وإبريقاً من الزَّيت .. وعجنَتْ له خبزاً طازجاً يكفيه يومـين أو ثلاثة .. وخبزَت له بعضَ الكعكِ المحلَّى بالتَّمرِ والعجوةِ .. قالت وهي تودِّعُهُ وتغالبُ دمعَها :

ـ ربُّنا يكون معك ويوفقك .. سنشتاق إليك، فلا تتأخر علينا وسأُرسِلُ لك ما تحتاج إليه من مؤونةٍ مع كلِّ مسافرٍ إلى نابلس.

ضَحِكَ عبدُالرحيم وهو يقول:

- من يسمعُكِ يا أُمي يظنُّ أنني مسافرٌ إلى جزرِ الهاواي أو إلى القمرِ.. تلكَ نابلس على مرمى الحجرِ منكِ!!.

- ولو يا بني.. فمن يدري في هذه الأيام كيف يكونُ الغد؟. فالبلادُ مقدمةٌ على أمورٍ لا يعلَمُ خفاياها إلا الله..

- ذلكَ عبيرُ الثورةِ يا أُمي يملأُ الجو، وتلكَ رائحةُ البارودِ تنتشِرُ في السُّهولِ والجبالِ، وهذا هو شذى النِّضال ينعِشُ القلوبَ...

* * *

(٦)

بعدَ أسابيع، كانَ عبدالرحيم محمود في غرفةِ المعلِّمين يتحدَّثُ إلى أستاذِهِ الشَّاعر «إبراهيم طوقان»... قال الأستاذ:

- ماذا ستقرأُ على الطلبة غداً في طابورِ الصَّباحِ يا عبدَالرحيم؟!

- إنْ أذنتَ لي أقرأُ عليهم قصيدتَكَ التي نظمتَها في إعدامِ الأبطالِ الثَّلاثةِ محمد جمجوم وفؤاد



عبدالرحيم مع أستاذه وشاعره الكبير «ابراهيم طوقان» في مدرسة النجاح في نابلس.

حجازي وعطا الزير، فغداً ذكرى استشهادِهم.

ـ حسناً اخترت، ولكنني أرى أن تقرأ بعضَ الأبياتِ منها فقط حتى يكونَ معكَ متّسعٌ من الوقتِ لقراءةِ قصيدتِكَ التي عرضتَها عليَّ بالأمسِ قصيدةِ «الشعب الباسل».

كادَ عبدُالرحيم محمود يطيرُ فَرَحاً .. فهل يعتقِدُ أستاذُهُ حقاً أن ما يكتُبُهُ جديرٌ بالقراءةِ جنباً إلى جنب مَعَ قصائدِ الشّاعر الكبيرِ الأستاذ إبراهيم؟.

ـ نعم يا عبدالرحيم، فموهبتُك واضحةٌ في محاولاتِكَ الشّعريةِ .. وأنتَ ستصبحُ بلا شك شاعراً جيِّداً إن داومتَ على قراءةِ الشّعرِ، والمطالعةِ المستمرَّةِ.

خَرَجَ عبدالرحيم من غرفةِ المعلّمين فرحاً جذلاً .. ومضى إلى بيته يُعيدُ قراءةَ «محاولاتِهِ الشّعريةِ» ينظمُها ويضبطُها ويتدربُ على إلقائها استعداداً للغد.

شعبٌ تمرَّسَ في الصِّعابِ ... ولم تنلْ منه الصِّعابْ
لو همُّهُ انتابَ[1] الهضابَ ... لتدكدَكتْ منهُ الهِضابْ
متمرِّدٌ لم يرضَ يوماً ... أن يقرَّ[2] على عذابْ
الحقُّ ليسَ براجعٍ ... لذويهِ[3] إلا بالحِرابْ

* * *

﴿٧﴾

تخرَّجَ عبدُالرحيم من كليةِ النجاحِ وعُرِضت عليه وظيفةٌ حكومية.

قال الشيخُ لابنِه:

ـ وظيفةٌ حكوميةٌ لا بأسَ بها .. راتبٌ شهريٌ ثابتٌ، وبدَلُ تنقلاتٍ، وبدلُ سكنٍ .. شرطيٌّ في الحكومةِ مناسب .. أليسَ كذلك؟..

أجابَ عبدالرحيم ببرودٍ:

ـ نعم .. وظيفةٌ حكوميَّةٌ لا بأس بها!! شابٌ متعلِّمٌ، رياضيٌّ، نشيطٌ يهوى اللغةَ وينظُمُ الشعرَ، يُصبحُ شرطيّاً .. ومَعْ مَن؟؟ مَعَ حكومةِ الانتدابِ الإنجليزي ..

ـ وما العيبُ في ذلك؟. أنتَ تخدِمُ الوطنَ مهما كان موقِفُك، وأينما كنتَ. بل يمكنك حقاً الاستفادةُ

---

(١) انتاب: أصاب. (٢) يقر: يرضى. (٣) لذويه: لأهله وأصحابه.

من وظيفتِك هذه لخدمةِ وطنِك ..

ـ نجرِّب ذلك!!..

بعدَ أسابيعَ قليلةٍ وبينما كانَ عبدُالرحيم في مكتبِهِ في دائرةِ الشُّرطةِ، تسلَّمَ إشارةً لاسلكيةً أطارت صوابَهُ وطيَّرت لبَّه، لقد تحقَّقتْ مخاوفُه ..! «المطلوب ملاحقةُ مجموعةٍ من الثُّوارِ ورجالِ العصاباتِ والفلاحينَ الذين يهدِّدون أمنَ الحكومةِ في المنطقةِ الجبليَّةِ قربَ قريةِ «عنبتا»، حيثُ أنَّ الدوريةَ العسكريةَ التي تمرُّ هناك، قد لاحظت حركةً غيرَ طبيعيةٍ في بعضِ الكهوف، ويُتوقَّعُ أن يكونَ الثُّوارُ يتهيَّأُون للشنِّ هجومٍ على أحدِ مواقعِ الجيش الإنجليزي .. يُرجى التحرُّك حالاً مع مجموعةٍ لا تقلُّ عن عشرين شرطياً عربياً لإلقاء القبضِ عليهم مباغتةً ودون قتال .. وحبَّذا لو يكونُ التَّحدُّثُ إليهم باللغةِ العربيةِ لطمأنتِهم بعدمِ وجودِ قواتٍ عسكريةٍ إنجليزية معكم» ..

وتداعى إلى مخيِّلةِ عبدالرحيم منظر الجبل الذي كانَ يلعبُ عليه، وتذكَّرَ أيامَ طفولتِهِ وهو يلعبُ مع رفاقِهِ .. وتذكَّرَ يومَ خافَ رفاقُهُ من الدوريةِ الإنجليزيةِ تثيرُ الغبارَ والرَّمل من بعيد، وكيف هربوا حتى لا يضطروا للإجابة على أسئلة الإنجليز يحقِّقون معهم أين كانوا وأين آباؤهم وماذا يعرفون عن الثُّوار ومخابئهم؟. إنَّه يقف في مكتب الشُّرطةِ مع حكومةِ الانتدابِ الإنجليزي، يظنُّ أنَّـهُ يمكنُه أن يخدمَ وطنَه من خلال وظيفته .. فكيف سيَخدِمُها الآن؟ .. هل يلبِّي الأوامرَ الصَّادرةَ إليه ويذهبُ مع عشرين شرطياً عربيّاً ليخدَعَ الثوار وهو يحدِّثهم بالعربيةِ ثم يقبضُ عليهم؟ .. كيف يكونُ هذا .. كيف .. كيف؟!

كانَ عبدالرحيم يصرُخُ ويصرخُ، وكأنَّهُ يحارِبُ في معركةٍ وحيداً منفرداً .. وأخيراً جلسَ إلى مكتبِهِ وأمسكَ ورقةً وقلماً وبدأ يكتب.

في الورقةِ الأولى كَتَبَ استقالَته من عملِهِ في حكومةِ الانتدابِ حالاً ومنذُ تلك اللحظةِ .. وفي الورقةِ الثانيةِ كتَبَ أبياتاً شعريةً :

قُلْ لا وأتبِعْها الفِعَالَ ولا تَخَفْ ... وانظرْ هنالِكَ كيف تُحنى الهامُ[1]

واغصِبْ حقوقَكَ قطُّ لا تستجْدِها[2] ... إنَّ الأُلى[3] سلبوا الحقوقَ لئامُ

هذي طريقُكَ في الحياة فلا تَحِدْ[4] ... قد سارَها من قبلِك القسَّامُ[5]

---

(١) الهام: الرؤوس.

(٢) لا تستجدها: لا تطلبها بذل.

(٣) الأُلى: الذين.

(٤) لا تحد: لا تنحاز عنها.

(٥) القسَّام: عزالدين القسام الذي نظم العمل العسكري ضد الإنجليز حتى يوقفوا هجرة اليهود إلى فلسطين والذي استشهد على ثراها. اقرأ كتاب: مع أحراج يعبده للمؤلفة روضة الفرخ الهدهد لتعرف عنه المزيد.

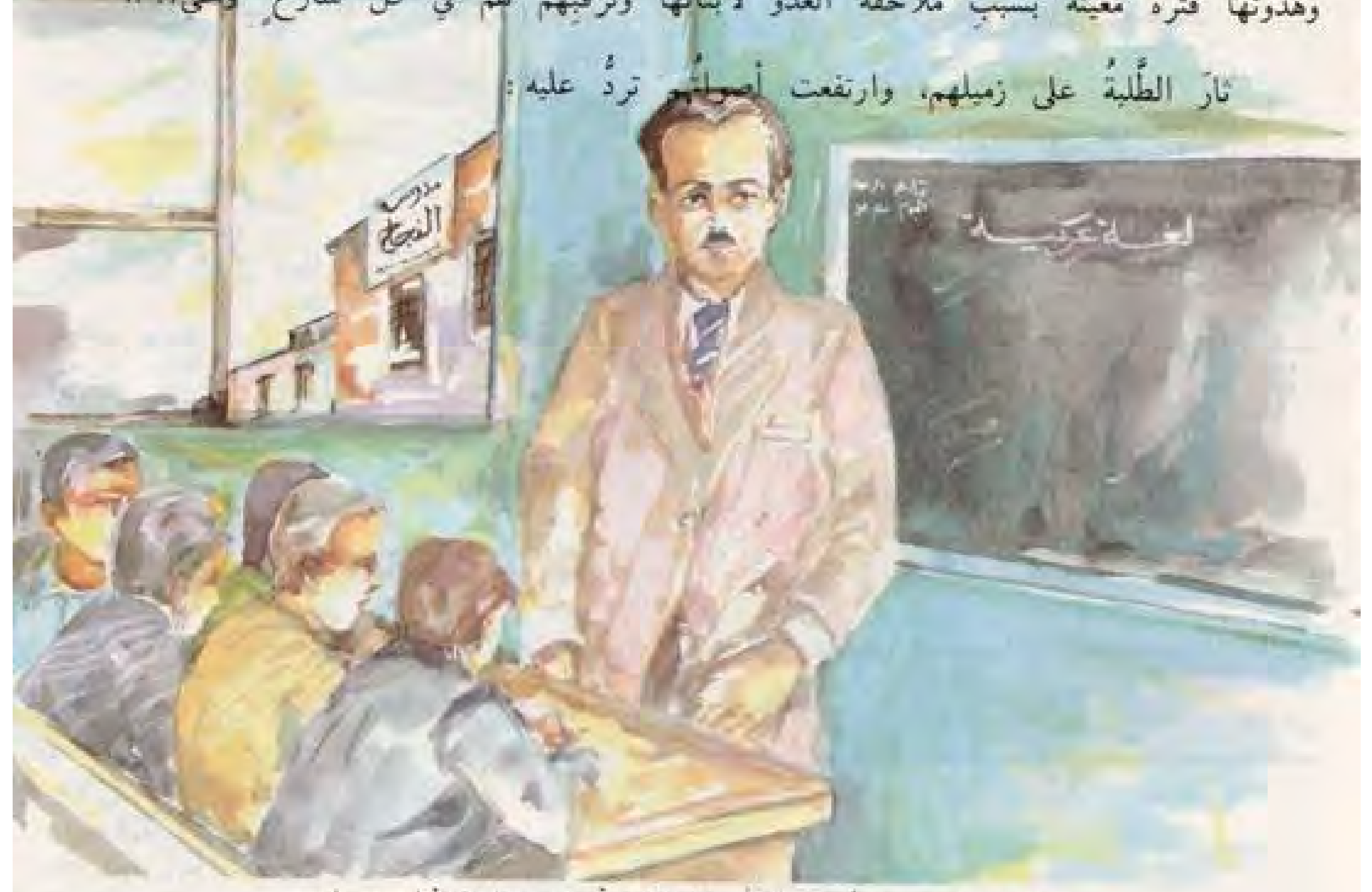
بعد أيامٍ أو أسابيع، كان عبدالرحيم محمود في مدرستِه السَّابقةِ : مدرسةِ النَّجاح في مدينةِ نابلس، وقد عُيِّنَ مُدرِّساً فيها، يشرِفُ على التَّدريبِ الرِّياضيِّ، ويُعلِّم اللغةَ العربيَّة.

في الصفِّ، وفي حصَّةِ اللغةِ العربيةِ، وقفَ أحدُ الطلاب يسألُ أستاذَهُ :

ـ هل يمكن أن نفهَم منكَ يا أستاذُ ما هي طريقُ «القسَّام» التي تريدُنا أن نتَّبِعَها؟. هل تعني أنَّها هي طريقُ الموت؟ .. لقد قَتَل الإنجليز القسَّامَ ورفاقَه وهو بعدُ لم يحاربْهم .. قتلوه وقد أعلنَ ثورته نظرياً فقط، فلما حَمَلَ سلاحَهُ، قتلوه قبلَ أن يَقتُلَ أحداً منهم .. فما هي الطَّريقُ التي تريدُنا أن نتَّبِعها؟ .. الإنجليز أقوى منَّا يا أُستاذ وأكثرُ عدداً وتنظيماً .. وجماعةُ «القسَّام» لا يزيدون عن بضعِ عشراتٍ من الشُّيوخِ، فكيفَ سيقفونَ أمامَ الإنجليز؟ ..

وعَلَتْ أصواتُ الطَّلبةِ في الصفِّ تحتَجُّ على كلامِ زميلِهم .. إنَّه يُقلِّلُ من أهميَّةِ الثّوارِ، ويعتبرُ استشهادَ القسَّام مجرَّدَ موتٍ عاديّ. رجلٌ قتلَهُ الإنجليز وانتهى أمرُه .. ويعتبِرُ مجموعة القسَّام مجموعةَ شيوخٍ، ما إن «قُتِلَ» قائدُها حتى تركوا السلاحَ واستكانوا وعادوا إلى بيوتِهم وأعمالِهم .. فهل الشهادةُ كالموتِ والقتلِ ؟ .. وهل تفشَلُ الثورةُ ويُقضى عليها بموتِ قائدِها؟ .. وهل تتوقَّفُ الثَّورةُ لسكونِها وهدوئها فترةً معيَّنةً بسببِ ملاحقة العدوِّ لأبنائها وترقُّبِهم لهم في كلِّ شارعٍ وحيٍّ؟؟ ..

ثارَ الطَّلبةُ على زميلِهم، وارتفعت أصواتُهم تردُّ عليه :



عبدالرحيم محمود وقد أصبح مدرِّساً يحفظ الطلبة أشعاره وينقلونها لأهلهم وجيرانهم ..

قال أحدهم :

ـ ﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيلِ الله أمواتاً، بل أحياءٌ عندَ ربِّهم يُرزقون﴾ صدق الله العظيم.

قال الثاني :

ـ إنَّه «الجمرُ تحتَ الرَّماد» يا أخي .. إنَّها الثورةُ التي تفجَّرت بموتِ شهيد، إن الثوارَ الآن أكثرُ عدداً، وهم قد استكانوا ليسَ لأنَّ الثورةَ انتهت باستشهادِ قائدِها، بل ليعيدوا ترتيبَ أوضاعِهم ورصَّ صفوفهم.

قال الثالث :

ـ يا أخي، إذا كان العدوُّ كثيرَ العَتادِ والعدَّةِ، فنحنُ أكثرُ عدداً وأقوى عقيدةً، نحنُ أصحابُ الحقِّ، نحنُ أصحابُ الأرضِ، نحنُ الشَّباب، نحن السِّلاح ..

مَلأتِ الفرحةُ نفسَ الأستاذ، وامتلأ صدرُهُ بشاعريَّةٍ كبيرةٍ، فانطلقَت على شفتيهِ أبياتٌ يحيِّي فيها الشَّباب ويقول :

فمن كبشُ الفداءِ سوى شبابٌ — أبيٌّ[1] لا يقيم على اضطهاد[2]
ومَنْ لِلحَرْب إنْ هاجَتْ لَظَاها[3] — ومَنْ إلاَّكُمُ[4] قدحُ الزِّنادِ[5]؟
فسيروا للنِّضال الحقِّ ناراً — تُصَبُّ على العِدا في كلِّ وادي
فليس أحطُّ[6] من شعب قعيدٍ[7] — عن الجهادِ وموطنُه يُنادي

كيف كانَ الطلبةُ يحفظونَ شعرَ عبدالرحيم محمود حالاً وعن ظهرِ قلب؟. كيفَ كانوا ينقلونه لأهلِهم وجيرانِهم؟ كيفَ كانَ الشِّعرُ ينتقلُ من شفةٍ لشفة، ومن شخصٍ لآخر ليصبحَ شعراً تحريضيّاً للثَّورةِ وللشَّبابِ الأحرارِ؟!.

* * *

﴿٨﴾

حمَلَ عبدالرحيم محمود كتبَهُ وأوراقَهُ وملابسَهُ وسافرَ إلى «عنبتا» فقد توقَّفت الدِّراسة في مدرسةِ النَّجاحِ وفي كلِّ مدارسِ فلسطين .. وتوقَّفَ العملُ في كلِّ مصانِعها ومعامِلها، وتوقَّفت عمليَّاتُ البيعِ والشِّراءِ في كلِّ دكاكينها ومحلاَّتِها : أُعلِنَ «الاضرابُ الكبير» إلى أن تتحقَّقَ مطالبُ الشَّعب .. وما هي

(١) أبيٌّ : حرٌ لا يرضى الذُّل.
(٢) اضطهاد : ذل وعبودية.
(٣) لظاها : نارها.
(٤) إلاَّكم : إلا أنتم.
(٥) قدح الزناد : شرارة نار الثورة.
(٦) أحط : أنزل وأحقر.
(٧) قعيد : قاعد عن محاربة العدو.

مطالبُهُ؟ وقْفُ هجرةِ اليهودِ إلى فلسطين، ومنعُ تسليمِ الأراضي العربيَّة لهم.

عادَ عبدالرحيم محمود إلى «عنبتا»، وجلَسَ مع والديهِ وإخوتِهِ طولَ السَّهرةِ، ولكنَّهُ كانَ طيلةَ الوقتِ شارِدَ الفكرِ، لا يركِّزُ فيما يقول، كانوا يسألونَهُ عن الدِّراسةِ والطَّلبةِ ونابلس والإضرابِ والأحداثِ، فيجيبُهم ساهماً واجماً .. لم يكُنْ أحدٌ يدري ما به!

بعد قليل انفردَتِ الأمُّ بابنِها تسألُهُ :

ـ بماذا تفكِّرُ يا عبدَالرحيم ..؟ لستَ على طبيعتِكَ أبداً ..

ـ أُفكِّر «لماذا خلقنا الله في الأرض».؟

أجابته أمه وهي تستغربُ سؤالَه :

ـ لنعمُرَها .. كما يقولُ أبوكَ دوماً .. خلَقَ الله الإنسانَ ليكونَ خليفتَهُ في الأرض، أرسَلَهُ ليعمِّرَها وليملأَها بمن يعبدُهُ ويشكرُ نِعَمَهُ ..

ـ ولما كنَّا نملأُ هذه الأرض ـ فلسطين ـ ونعمِّرُها، ونعبدُه فيها، فلماذا يأتي أُناسٌ غريبون ليستعمِرُوها ويُذِلُّوا أهلَها وأبناءها .. ثم لماذا يُحضِرونَ اليهودَ من كلِّ أنحاءِ العالم ليقيموا دولتَهم فيها؟.

ـ تعني الإنجليز؟ لقد بلانا الله بهم شرَّ بلاء .. والله هم أساسُ الدَّاءِ وهمُ الذين جَلبوا المشاكلَ لكلِّ أهل فلسطين، للفلاحينَ والعمَّالِ، للموظَّفين والتُّجارِ، للمتعلِّمين والأُميِّين، للنِّساء والرِّجال وحتى الأطفال، يتَّموا الأطفال وحرموهم من ..



عبدالرحيم واجماً .. ساهماً .. يراجع في نفسه قيمة الروح التي تصعد إلى بارئها مدافعة عن الأرض والانسان ..

لم يكن عبدُالرحيم يستمِعُ لجوابِ أُمِّهِ، كانَ لا يزالُ شارِدَ الفكرِ يحاوِرُ نفسَهُ ويتكلَّمُ مع روحِهِ.. فقالَ مقاطعاً إيَّاها دونَ انتباه:

- وما هي الرُّوح؟.

وفوجئت الأمُّ بالسُّؤالِ الغريب..

- تسألُني يا عبدَالرحيم؟. تسألني أنا ما هي الرُّوح؟ وهل يعرِفُ أحدٌ ما هي الرُّوح؟

ولكنَّ عبدَالرحيم لم يكنْ يستمِعُ إليها.. لعلَّهُ كان يراجِعُ في نفسِهِ قيمةَ الرُّوحِ التي تصعَدُ إلى بارِئها مدافِعةً عن الأرضِ التي خلَقَ الله الإنسانَ من أجلِ أن يعمِّرَها..

ظلَّ عبدالرحيم واجماً ساهماً، كان يخطِّط ويفكِّرُ ويحاوِرُ ويتناقشُ ويسألُ ويجيب.. في تلك الليلةِ تداعى إلى فكرِهِ كلُّ ما حبَّبَ إليه أرضَهُ: كرومُ العنبِ وأشجارُ الزَّيتونِ.. مدرستُهُ.. السهلُ والوعرُ.. الجبالُ والكهوفُ.. وما إنْ وصَلَ إلى ذلك: إلى الجبل والكهف، حتَّى كانَ قد وصَلَ إلى قرارٍ لا رجعةَ عنه.

* * *

﴿٩﴾

لم يكنِ الفجرُ قد لاح.. ولم يكنِ الناسُ قد تركوا بيوتَهم للصَّلاةِ في الجوامع.. كانت والدتُهُ تغُطُّ في نومِها إثر حديثِها «غيرِ المنطقيِّ» معه.. عندها انطلق عبدُالرَّحيم بخفَّةٍ وهدوءٍ إلى الجبلِ.

كم ساعةً استغرقَهُ البحثُ عنهم؟ كيف اهتدى إليهم؟. متى وصلَهم؟ وهل عرفوه حالاً أم شكُّوا بأمره؟.

جلس عبدُالرحيم على الأرضِ وحولَه بعضُ الثُّوارِ وقالَ:

- جئتُ أنضمُّ إليكم وأعملُ معكم.. جئتُ مجاهداً في سبيلِ الله والوطنِ فهل تقبلونَني؟.

هل كان أحدٌ منهم يجهلُ هذا الشابَّ الشاعرَ ذائعَ الصِّيت؟ ألم تكن أشعارُه تنتقِلُ على الشِّفاهِ والألسنِ تحرِّضُ على الثَّورةِ؟ ألم يخاطِبِ العمالَ والفقراءَ والفلاحين في شعرِهِ؟. ألم يكن هو الشابَّ الرياضيُّ، جميلُ القسماتِ الذي وقَفَ أمامَ الآلافِ من النَّاسِ ليُخاطبَ الأميرَ «سعود بن عبدالعزيز»[1] حين مرَّ بقرية «عنبتا» بعد زيارته للمسجدِ الأقصى فقال له:

---

(١) وقد أصبح فيما بعد ملك المملكة العربية السعودية وقد زار فلسطين بتاريخ ١٤ / ٨ / ١٩٣٥ والقصيدة التي ألقاها الشاعر أمامه بعنوان: «نجم السعود».



... اثر التحاقه بالثورة والثوار؛ مع قائده وقائد الثورة عبدالرحيم الحاج محمد يخططان المعارك ضد الجنود المستعمرين وضد المستعمرات الصهيونية.

يا ذا الأميرِ أمامَ عينيْكَ شاعرٌ ضمَّت على الشَّكوى المريرةِ أضلُعُهْ
المسجدُ الأقصى أجئتَ تزورُه أم جئتَ من قَبْلِ الضَّياعِ تُوَدِّعُهْ

ألم يكن يومَها يشكو بكلِّ مرارةٍ خوفَهُ على المسجدِ الأقصى من الضَّياعِ أمامَ هجمةِ الإنجليز وشراستِهم في تطبيقِ مخطَّطاتِهم على الشَّعبِ الفلسطينيِّ الأعزلِ؟. فكيفَ لا يعرفونَهُ وكيفَ لا يقبَلونَه؟.

ولكنَّ القائدَ «عبدالرحيم الحاج محمد» قال له:

ـ لا .. لا نقبلُك ..

وسكتَ الجميعُ، وذُهِلَ عبدُالرحيم .. لماذا؟.

قال القائدُ ممازحاً:

ـ لا نقبلُكَ إلا بقصيدةِ شعرٍ ثوريَّةٍ جديدةٍ تهزُّ أبناءَ هذه الأمَّةِ والقاعدينَ عن الجهاد فيها ..

انفرجت أساريرُ كلِّ الثُّوار، وارتاح بالُهم .. وبعدَ أيامٍ كانَ على لسانِ الثُّوارِ والمواطنينَ قولُ الشَّاعِرِ:

دعا الوطنُ الذبيحُ إلى الجهادِ فخفَّ لفرطِ فرحتِهِ فؤادي[1]
وسابقتُ الرِّياحَ ولا افتخارٌ[2] أليسَ عليَّ أن أفدي بلادي؟
وقلتُ لمن يخافُ من المنايا[3] أتفرَقُ[4] من مجابَهةِ الأعادي
فدونَك خِدرُ أمِّكَ فاقتحمْهُ وحسبُك خسّةً هذا التهادي

* * *

(١٠)

منذُ ذلك اليوم، منذُ انضمامِ عبدِالرحيم محمود للثوّارِ في الجبال، بدأ تدريبَه على القتال .. كانَ يستيقظُ باكراً فيقطعُ عشراتِ الكيلومترات مشياً أو ركضاً .. ثم يتدرَّبُ على الزَّحفِ والانسحابِ والهجوم والدِّفاعِ .. ثم يتدرَّبُ على حَملِ السِّلاحِ وضربِ النَّار، وتنظيفِ البنادقِ وحشوِ الذَّخيرةِ وتفريغِها .. يتدرَّبُ على الاختباءِ في الكهوفِ أو خلفَ الأشجارِ أو وراءَ الصُّخور .. كانَ ببساطةٍ يتدرَّبُ على فنون الحرب الأوَّليَّة، يُعلِّمه إياها قائدُهُ عبدالرحيم الحاج محمد «أبو كمال» لا يكلُّ ولا يملُّ .. ألم يكن يوماً شرطيّاً مَع قواتِ العدوِّ وقد تعلَّم آنذاك الكثيرَ؟

بعدَ أيامٍ كان عبدالرحيم مع قائده «أبو كمال» يدرُسُ موقعَ أوّلِ هجومٍ سيشترِكُ به ..

قالَ القائد:

ـ ستقومُ مجموعتك بزراعةِ ألغامٍ في الطريقِ التي ستمرُّ بها دوريَّةُ سيّاراتٍ عسكريَّةٍ إنجليزيَّةٍ قربَ مدينةِ طولكرم، تزرعون الألغام في المنطقةِ المنبسطةِ من الأرض، وتبتعدون كثيراً وتتفرَّقون .. وحيث أنَّ موعدَ تحرُّكِ السَّياراتِ الإنجليزيَّةِ ـ كما علمت من بعض الاخوان هناك ـ سيكونُ السَّادسةَ صباحاً، فإنَّ عملَكُم يجبُ أن يتمَّ بعدَ منتصفِ الليلِ، فهل هذا واضحٌ؟.

ـ نعم .. واضحٌ .. نعم واضحٌ جداً ..

لم يشعُرْ عبدُالرحيم محمود بالسَّعادةِ قطُّ في حياتِهِ قَدْرَ شعورِهِ بالسَّعادةِ في ذلك اليوم، فهل يكونُ حقّاً مع الثُّوارِ يُدافعُ عن وطنِهِ وأرضِهِ وبيّاراتِهِ وكرومِ العنبِ والأطفالِ؟. هل يحقِّقُ حلمَهُ بالدِّفاعِ عن «وطنِهِ الذَّبيحِ» الذي يذبحه الاستعمارُ الإنجليزي بضبَّاطِهِ وجنودِهِ وسيَّاراتِهِ ودباباتِهِ وحتَّى طائراتِه؟. هل يُطبِّقُ أقوالَهُ وأشعارَهُ في الجهادِ ليكونَ هو بنفسِهِ ثائراً مجاهداً في سبيل الله والوطن؟..

---

(١) فؤادي: قلبي.
(٢) ولا افتخار: دون فخر.
(٣) المنايا: الموت.
(٤) أتفرق: أتخاف، الفرق هو الخوف.

في منتصف الليلِ كانَ الفصيل المكوَّنُ من عشرةِ ثوّارٍ يضعونَ «الكوفيّةَ والعقالَ» على رؤوسِهم ويُغطُّونَ بها وجوهَهُم، لا تكادُ تظهرُ منها إلا العيون، ويلبسونَ ملابسَ الفلاحينَ وأهلِ القرى، ويحملونَ بنادقَهم وذخيرتَهم، ويتّجهونَ مشياً إلى المكانِ المحدَّدِ .. وقَفَ بعضُهُم لمراقبةِ الطريقِ، وأخَذَ الآخرون يزرعونَ الألغام ..

في السادسةِ صباحاً، انفجرَ لغمٌ كبيرٌ، واحترقت سيارة وقُتِلَ خمسةُ جنودٍ!! ولم يكتشف أحدٌ الجناةَ!!

ـ اليوم سيكونُ تركيزُنا على اصطيادِ دوريةٍ كبيرةٍ علمنا أنها تتحرَّكُ لتدخُلَ إحدى القرى قربَ نابلس .. سيقومون بتفتيش القرى بحثاً عن المجاهدينَ والثُّوار .. وأنتم تعرفونَ كيف يكونُ تفتيشُهم الوحشيُّ في بيوتِ العربِ .. سيقِفُ لهم كمينٌ مكوَّنٌ من خمسةٍ وسبعين مجاهداً على الأقل، فالدّوريةُ كبيرةٌ .. وقد انتخبتهم من خيرةِ الشبّان، وستكون معهم يا عبدَالرحيم، تقفونَ في المنطقةِ العاليةِ بينَ الصخورِ، وتتوزَّعونَ على رؤوسِ الجبال : خمسةٌ من كلِّ جانب وعلى مسافة عشرين متراً تقريباً خمسةٌ آخرون .. وعندما أُعطي الإشارةَ ببدْءِ الضرب، وذلك بإطلاقِ رصاصتين متتاليتين، يبدأ الجميعُ برمي الرَّصاص على سياراتِ العدوِّ في السهل .. وقد أخذتُ الحيطةَ حتى لا نُفاجَأ بقواتٍ نجدةٍ من جنودِهم تحيطُ بالجبالِ كلِّها وتحاصُرنا في الوسَطِ، فأرسلتُ بعضَ الشَّبابِ بطَلَبِ النجدةَ من القرى المجاورةِ إذا احتاجَ الأمر.

كم معركةٍ اشترَكَ فيها عبدالرحيم محمود مع قائد الثورةِ في المنطقةِ الشماليةِ! كم دوريةٍ انجليزيةٍ هاجمها! كم سكةِ حديدٍ لقطاراتِ الجنودِ خلَعَها! كم عمودٍ للهاتفِ بين المدنِ أتلفَهُ! وكم مستعمرةٍ صهيونيةٍ هاجَمها ودكَّها!! وبعدَ كل عمليةٍ كانَ عبدُالرحيم محمود أو أحدُ أصدقائهِ[1] يجلسُ إلى القائدِ يُملي عليهِ البياناتِ العسكريةَ لنشرِها في الصُّحف أو لتوزيعها مناشيرَ على المواطنين ..

* * *

«١١»

من «صانور» جاء الخبر!! .. من قرية صانور وبتاريخِ ٢٦ / ٣ / ٣٩ جاءَ الخبرُ المذهلُ!! قالوا : جاءَ إلى القريةِ يبيتُ فيها ليلةً بعدَ سفرٍ طويلٍ من مدينةِ دمشقَ حيثُ كان يطلبُ المزيدَ من الأسلحةِ والذَّخيرةِ للثُّوارِ .. كان يريدُ مواصلةَ السيرِ في اليومِ التالي إلى جبالِهِ وكهوفِهِ وثوّارِهِ، ولكنَّ الاستخباراتِ الانجليزيةَ كانت تُتابِعُهُ وتتعقَّبُهُ في الليلِ والنَّهار .. من «صانور» جاءَ الخبر!! نامَ فيها مع اثنينِ فقط من معاونيه .. إذن فالصَّيدُ سهلٌ، والفرصةُ ذهبيةٌ قد لا تتكرَّرُ مرتين .. أطواقٌ ثلاثةٌ

---

(١) ممدوح السخن، كان الاثنان عبدالرحيم وممدوح السخن نائبيْ القائد للأمور الثقافية والاعلام.

من الجنودِ بدأت تتسرَّبُ في الليل تحيطُ بالقريةِ .. طوقٌ وراءَ الآخر، إن نجا من الأوّلِ أمسكَ بهِ الثاني، وإلا فالثَّالث .. عَلِمَ القائدُ عبدالرحيم الحاج محمد «أبو كمال» بما دُبِّرَ له فركِبَ حصانَهُ وانطلقَ .. تخطَّى الطَّوقَ الأولَ، والثَّاني ونفدَت الذَّخيرةُ؛ فأطبَقَ عليه الطوقُ الثالثُ. وصعدت روحُهُ إلى بارئها .. ووصلَ الخبرُ .. وصُعِقَ الناسُ .. وامتلأتِ العيونُ بالدموعِ، وامتلأتِ القلوبُ بالحزنِ الكبيرِ .. أيموتُ القائدُ ويتركُ ثوارَهُ ومحبِّيه؟. أيموتُ المجاهدُ الصغيرُ خادمُ دينِهِ وأمته[1] ولم تنتصرِ البلادُ بعد؟ .. أينتصرُ عليه جنودُ المستعمرِ وعيونُ الصهيونيَّةِ الحاقدةِ؟. ما أكبرَ الخسارةَ وما أفدحَها!!


القائد الكبير عبدالرحيم الحاج محمد وقد أطبقت عليه أطواق الجنود الانجليز الثلاثة في قرية صانور فسقط شهيداً.

خَرَجتِ الجموعُ في مظاهراتٍ صاخبةٍ تُعلِنُ حزنَها العميقَ على استشهادِ القائدِ .. أقفلتِ المدارسُ، توقفت الحركةُ في كلِّ المدنِ والقرى الفلسطينيةِ، دُقَّت أجراسُ الكنائسِ وامتلأت المساجدُ

(١) بهذا اللقب كان عبدالرحيم الحاج محمد يوقع بياناته العسكرية وخطاباته.

بالجموعِ للصلاةِ على روحهِ. في كلِّ ركنٍ من أركانِ فلسطينَ صلاةٌ .. ولكنَّ واحداً فقط لم يكنْ مع كلِّ هؤلاءِ .. واحداً فقط ظلَّ في بيتِه معتكفاً يبكي قائدَه المحبوبَ .. واحداً فقط أرادَ أن يُخلِّدَ قائدَهُ بقصيدةٍ تُبقي الحُزنَ في النفوسِ على استشهادِهِ أبدَ الدّهرِ .. ذلك هو عبدالرحيم محمود:

أنذا أنشدتُ يُوفيكَ نشيدي — حقَّك الواجبَ يا خيرَ شهيدِ
أيُّ لفظٍ يَسَعُ المعنى الذي — مِنْكَ أستوحيهِ يا وَحْيَ قَصيدي
أيها القائدُ لِمَ خَلَّفْتَنا — ولمن ولَّيتَ تصريفَ الجنودِ
أقفَرَ الميدانُ من فرسانِهِ — وخلا من أهلِهِ غابُ الأسودِ
لم أكنْ قبلَكَ أدري ما الّذي — يُرخِصُ الدّمْعَ ويُودي بالكُبودِ
كلُّ بيتٍ لَكَ فيه مأتَمٌ — يندُبُ النّاسُ به أغلى فقيدِ

ولكن .. ألم يكُنْ هذا القائدُ يرجو الشَّهادةَ ولا يخشاها .. ألَمْ يكنْ يؤمِنُ أنَّ الشُّهداءَ هم أكرمُ مَنْ في الأرض وهم في جِنانِ الخُلدِ مع الأنبياءِ والصِّدِّيقين؟؟

أيها القائدُ هذي مِيتَةٌ — طالما رجَّيْتَها منذُ بعيدِ
مصرَعُ الأبطالِ ما بينَ الحديدِ — في الميادينِ ورفَّاتِ البنودِ
هذه أعراسُهم صَخَّابَةٌ — نقرةُ الدفِّ بها قَصْفُ الرُّعودِ
فَيروونَ الثَّرى من دمعِهِم — ويُحنُّونَ بها كفَّ الصَّعيدِ

عرسٌ وأعراسٌ .. حنّاء تُحنّى به أيدي العروسِ ورفيقاتها .. ودفوفٌ يُنْقَرُ عليها، زغاريدُ تَزُفُّ العريسَ والعروسِ .. دماءٌ تُخضِّبُ الأرضَ فتُحنِّيها .. نقرُ الدُّفوفِ كقصفِ الرُّعود .. حياةٌ تبدأُ مِنَ الموتِ .. وعريسٌ يُزَفُّ إلى معشوقتِهِ الأرضِ، وزغاريدُ تزفُّ الرُّوحَ لبارِها .. أعراسُ الرُّوح ..

* * *

﴿١٢﴾

دُقَّ البابُ دقّاً عنيفاً فأزعَجَ كلَّ مَنْ في البيتِ. وهُرِعتِ الأمُّ تعدِّلُ من غِطاءِ رأسِها وتفرُكُ عينَيْها وتصيحُ: مَن في الباب؟؟ .. واستيقظَ كلُّ مَن في المنزلِ وهُرِعَ بدورهِ إلى الباب .. فمن الذي يأتيهم في منتصفِ الليلِ ويضرِبُ الباب بكلِّ هذا العنف؟؟ ..

ـ افتحْ وإلا كسَرنا البابَ!!.

ـ ولماذا تكسرونَهُ .. سأفتح .. ها أنذا قادمة ..

ودخل الجنودُ متدافعين يرفعون بنادقَهم وأصابعُهُم على الزِّنادِ ..

ـ أين عبدالرحيم؟؟ أين هو؟؟

قال الأبُ بهدوءٍ:



الاقتحام المفاجىء والعاصف لبيوت الفلسطينيين بحثاً عن الثوار لاعتقالهم

ـ لم يحضرْ بَعد .. ماذا تريدونَ منه ..

ـ متى يحضرُ؟.

ـ لا ندري .. ليسَ له موعدٌ محددٌ .. قد يغيبُ أياماً وقد يحضُرُ في كلِّ ليلةٍ ..

ـ وأين يغيبُ أياماً؟؟.

ـ لا ندري.

ـ ألا تدري أنَّهُ كانَ يتغيَّبُ عن منزلِهِ ليُحاربَنا، ألا تدرونَ أنَّهُ يعملُ مَعَ العصاباتِ والأشقياءِ وقُطَّاعِ الطُّرقِ؟ ..

نظرَ الشيخُ نظرةً عميقةً إلى هذا الضابطِ الإنجليزيِّ اللعينِ .. كادَ يقولُ له (قَطَعَ الله لسانَكَ إذ تصفُ ابني بقاطعِ طرقٍ وهو ثائرٌ مجاهدٌ).

صرخَ الضَّابطُ بعد أن أنهى جنودُهُ تفتيشَ المنزلِ :
ـ أخبِره أننا سنجدُهُ وسنقبضُ عليه.

خرجَ الجنودُ كما دخلوا كالعاصِفةِ الهوجاءِ .. وتبعتْهم الأمُّ بهدوءٍ وتحسُّب .. وبعد أن ابتعدوا بسياراتِهم جعلتْ هي تدورُ حولَ الدَّارِ كلَّ ربعِ ساعةٍ مرَّةً. كانت تريدُ أن تتلقَّفَ ابنها لو جاءَ في أيةِ لحظةٍ حتى تُنَبِّهَهُ للخطرِ المحيطِ به .. ولكنّها أخيراً قررت عملَ شيءٍ ما ..

هناك في الجبلِ التقتِ الأمُّ بابنها .. لم يكنِ المشوارُ سهلاً ولكنَّها لم تعدمِ الوسيلةَ للوصول إليه ..

قال عبدالرحيم :

ـ نحن نعرفُ ما يجري .. وأنا لستُ الوحيدَ الذي تلاحِقُهُ القواتُ الإنجليزيةُ .. جميعُ الثُّوارِ ملاحَقون .. وقد استغلَّ الإنجليزُ فترةَ هدوءِ الثَّورةِ وإيقافِ معاركنا للقبضِ علينا .. فأنتِ تعلمين يا أمي أننا أوقفنا هجماتِنا ضدَّ الإنجليزِ واليهودِ فترةً من الزَّمنِ بناءً على وعودِ الإنجليز لكلِّ ملوكِ الدُّولِ العربيةِ ورؤسائها بحلِّ القضيَّةِ سلماً.

سكتَ عبدُالرحيم وقد لاحظَ أمراً غريباً على وجهِ والدتِهِ .. لعلَّها لم تكنْ تريدُهُ أن يقولَ هذا الكلام .. لعلَّها لم تكن مقتنعةً بوعودِ الإنجليزِ حتى لو كانت الوعودُ للملوكِ والأمراءِ .. أو لعلَّها كانت تقولُ في سرِّها؛ وإذا أوقفَ الثُّوارُ هجماتِهم، فلماذا تُلاحِقُهم القواتُ الإنجليزيَّةُ للقبضِ عليهم وهم عُزَّل دونَ سلاح؟؟ أرادَ عبدالرحيم تغييرَ دفَّةِ الحديث قليلاً فقال :

ـ وهل الحربُ شجاعةٌ وحماسٌ فقط؟ هل هي اندفاعٌ وشجاعةٌ فقط؟ نحنُ لم نتدرَّبِ التَّدريبَ الكافي لمواجهةِ الدباباتِ والطائراتِ، والجيوشِ المنظَّمةِ، واليهودِ الذين يتسلَّحونَ بأحدثِ الأسلحة ..

خافت أُمُّ عبدالرحيم .. لعلَّها ظنَّتهُ يريدُ الانسحابَ من مواجهة الإنجليز واليهودِ خوفاً من قوَّتِهم ..

ـ ماذا تعني يا عبدالرحيم، .. قُلْ أسرع ..
ـ أعني أننا سنسافرُ إلى العراق ..
ـ مَنِ الذي سيسافرُ؟ ولماذا إلى العراق؟.
ـ سيسافرُ معظَمُ قادةِ الثورةِ . يسافرونَ واحداً إثرَ الآخر، وسيلتحقونَ بالكليَّةِ العسكريَّةِ في

بغداد[1]! فإذا لم تُحلّ قضيتُنا، فتتوقّفْ هجرةُ اليهودِ إلى فلسطين، ونتسلّم نحنُ العربَ قيادةَ شعبنا، نعودُ ونحنُ أكثرُ دربةً واستعداداً لمواصلةِ النضالِ ..

* * *

﴿١٣﴾

مرَّتِ السَّنواتُ عنيفةً قاسيةً شديدةً على كلِّ العالمِ .. اشتعلت الحربُ العالميةُ الثانيةُ واستمرَّت ستُّ سنواتٍ طويلةٍ عنيفةٍ قاسيةٍ .. وانشغل العالمُ كلُّهُ بهذه الحربِ الكونيةِ العظمى .. انشغَلَ الإنجليزُ والألمانُ والإيطاليون والأميركانُ بهذه الحربِ. وتابَعَها وتابعَ مآسيها وأهوالها كلُّ العالمِ .. وكذلك العربُ وأهلُ فلسطين ..

وبعد سنواتٍ عادَ عبدُالرحيم ورفاقُهُ إلى فلسطين يملؤهم الشوقُ لأرضِهم التي غابوا عنها كثيراً. كانَ عبدالرحيم يسيرُ في السُّهولِ والوديانِ فينظُمُ الشعرَ. ينظمه للطبيعةِ الخلَّابةِ وللزهرةِ اليانعةِ، وللنبعِ بمائِهِ الزُّلالِ، للعامِلِ في معملِهِ، وللأجيرِ في مصنعِهِ .. كانَ يستلهِمُ من أرضِه السموَّ في النفسِ والطُّموحَ والإباءَ والعزَّةَ .. فيحسُّ أنَّ روحَهُ تتسامى وتعلو مع هذا الحبِّ الكبيرِ .. ولكنَّ أمراً واحداً كانَ يعتصرُ قلبَهُ وفؤادَه، ذلك هو رؤيته لتلكَ المستعمراتِ اليهوديَّةِ يزدادُ عددها يوماً بعد يوم!!

جَلسَ عبدُالرحيم إلى زوجتِهِ يحادِثُها وبينهما صغارُهُ الثلاثة: الطيِّب[2] وطلال ورقية قال لها:

ـ لا أدري كيف سيكونُ مصيرُ هؤلاءِ الأولادِ يا «أُمّ الطيِّب» .. فواللهِ إنّي أسمعُ صليلَ السُّيوفِ يملأُ أذني، وأشمُّ رائحةَ البارودِ تملأُ أنفي ورئتيَّ .. وأرى المعركةَ قادمةً لا محالة .. وفترةَ الهدوءِ هذه ستعقُبُها العاصفةُ المدمِّرةُ .. كلَّ يومٍ أتجوَّلُ فيه في هذه الأراضي المجاورةِ، أرى مزيداً من المستعمراتِ اليهوديةِ قد أُنشئَتْ، وبدَلَ أن تُحلَّ القضيةُ «سلمياً» إذ بحكومةِ الانتدابِ الإنجليزي تفتحُ المزيدَ من الأبواب لهجرةِ اليهودِ إلى فلسطين، وتعطيهم المزيدَ من الأراضي العربيةِ وتطردُ المزيدَ من الفلاحين العرب من أرضهم ..

ترى كيف سيكونُ مستقبلُ أولادي وأين سيعيشون. هل تُراك يا «الطيِّب» ستأكُلُ من عنبِ كرومِ «عنبتا» وزيتونِها؟ .. هل تراكَ يا«طلال» ستدرُسُ في مدارسها أو تصلّي في جوامعِها؟ .. وهل تُراكِ

---

(١) كان هذا في عام ١٩٣٩ عندما التحق الثوار أمثال عبدالقادر الحسيني وحسن سلامة وذو الكفل عبداللطيف والحاج خالد الفرح وعشرات غيرهم بالكلية الحربية في بغداد وذلك بتنسيق وترتيب من رئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين «الحاج أمين الحسيني» ويذكر أن هؤلاء اشتركوا في ثورة «رشيد عالي الكيلاني» العربية العراقية ضدَّ القواتِ الإنجليزية التي كانت في العراق

(٢) الطيِّب: اطلق الشاعر اسم «الطيب» على ابنه البكر حباً بالشاعر الكبير «أبوالطيب المتنبي».

يا «رقية» ستكبرين فيها وتخبزين في الفرنِ الذي طالما خَبَزَتْ فيه جدَّتُكِ؟. هل يا ترى سأعيش الى اليومِ الذي أزفُّ فيه «رقية» لعريسها في قريتِنا وأرضِنا؟؟.

لم تعدْ هذه الحياةُ يا «أم الطيب» تسرُّ النفسَ أو الصَّديق .. فما العيشُ إذا كانَ المرءُ لا يأمَنُ على نفسِهِ وأرضِهِ وأولادِهِ .. ما العيشُ إذا كانت أرضُنا تُسلَبُ منَّا يوماً بعد يومٍ، وشبراً بعد شبرٍ؟ .. ما الروحُ إذا لم تتسامى وترتفعْ لتلاقي ربَّها راضيةً مرضيَّةً؟ إلام القعودُ والانتظارُ؟ إلام انتظارُ الحلولِ السلميةِ من الأعداءِ؟ أهذا ما كنَّا ننتظِرُهُ؟ أن يصدُرَ قرارٌ بتقسيمِ[1] فلسطينَ وإعطاءِ نصفِها على الأقلِّ لليهود؟ .. إنني راحلٌ الآن .. أمّا أنتِ والأولاد فبرعايةِ الله أتركُكُم ..

قبَّلَ عبدُالرحيم أولادَه الصغارَ بكل الحب، وحمل روحَهُ وانطلق إلى دمشق. لقد أعادَ «الوطنُ الذَّبيحُ» دعوتَهُ لأبنائِهِ للجهاد المقدَّسِ فاجتمعَ قادةُ الثورةِ في دمشقَ[2] لتنظيم صفوفِهم ولتوزيعِ مراكزِ عملِهم وتقسيمِ المناطقِ والمسؤوليّاتِ بينهم، واستلام الأسلحةِ والذَّخيرةِ لهم وللثّوارِ الذين ينتظرونَهم ..

* * *

عادَ عبدالرحيم محمود وقد عُيِّنَ ملازماً في جيشِ الإنقاذِ[3] في المنطقةِ الوسطى والشماليةِ من فلسطينَ .. ألم يكنْ يعرِفُها حجراً حجراً وشارعاً شارعاً .. ألم يحارِبْ فيها من قبل مع قائدِهِ «أبي كمال»؟. وابتدأت معاركُهُ في أماكنَ متفرقةٍ. في بلعا، الرملة، الناصرة، وجنين وطولكرم .. كان يحملُ روحَهُ أينما ذهب ويُنشِدُ ويردِّدُ من ورائِهِ جنودُه أروعَ قصيدةٍ سَمِعَتْها الجبالُ والوديانُ:

سأحمِلُ روحي على راحتي ... وألقي بها في مهاوي الرَّدى
فإمّا حياةٌ تسرُّ الصَّديقَ ... وإمّا مماتٌ يغيظُ العِدى
ونفسُ الشَّريفِ لها غايتانِ ... ورودُ المنايا ونيلُ المُنى ..

* * *

وما العيشُ؟ لا عِشْتُ إنْ لم ... أكنْ مخوفَ الجنابِ حرامَ الحِمى.
إذا قلتُ أصغى ليَ العالَمونَ ... ودوَّى مقالِيَ بينَ الورى.
لعمرُكَ إنّي أرى مصرعي ... ولكنْ أغذُّ إليهِ الخُطا.
أرى مقتلي دونَ حقي السَّليبِ ... ودونَ بلادي هو المُبتغى

(١) صدر قرار تقسيم فلسطين بتاريخ ٢٩ / ١١ / ١٩٤٧.
(٢) التحق الثوار بمعسكر التدريب في «قطنه» وهي من ضواحي دمشق.
(٣) كان جيش الانقاذ بإمرة القائد فوزي القاوقجي.

يَلَذُّ لأذني سماعُ الصَّليلِ ويُبهِجُ نفسي مسيلُ الدِّما
وجسمٌ تجندَلَ في الصَّحْصَحانِ(١) تناوشُهُ(٢) جارحاتُ الفلا(٣)
فمنه نصيبٌ لطيرِ السَّماء ومنه نصيبٌ لأُسْدِ الثَّرى
كسا دمُهُ الأرضَ بالأُرجوانِ وأثقلَ بالعِطرِ ريحَ الصَّبا
وعفَّرَ منهُ بهيَّ الجبينِ ولكنْ عفاراً يزيدُ البَها
وبانَ على شفتيهِ ابتسامٌ معانيهِ هزْؤٌ بهذي الدُّنى
ونامَ ليحلمَ حلمَ الخلودِ ويهنأ فيه بأحلى الرُّؤى

* * *

﴿١٤﴾

وصلتِ الإشارةُ من قريةِ «الشجرة» .. وبَلَغ عبدَالرحيم الأمرُ بالتحرُّكِ إلى قريةِ «الشجرة» .. كانَ عبدُالرحيم طالما رآها وأُعجبَ بها فهي تطلُّ على بحيرة «طبريا» ولكنه طالما حزِنَ لمرأى مستعمرةٍ يهوديةٍ تُبنى قربَها .. لقد بنى اليهودُ مستعمرةً محصنةً وسموها بالعبرية «السجرة السين بدل الشين» حتى يندثر اسمُ القريةِ العربيةِ فيما بعد وتبقى المستعمرةُ اليهوديةُ .. وقد اشتدَّ القتالُ بين القريةِ والمستعمرةِ .. واضطرَّ أهلُها لمغادرتِها كي تستطيعَ القواتُ العربيةُ التمركُزَ فيها لمواجهةِ القواتِ اليهوديةِ، وازدادتِ المعاركُ بين الجانبين وارتفع عددُ الضحايا .. فهل سيخافُ عبدالرحيم من مجابهةِ الموت؟ أكمل عبدالرحيم نشيده وردَّدَ من ورائهِ جنودُه أروع قصيدة سمعتها الجبال والوديان:

أخوْفاً؟! وعندي تهونُ الحياةُ وذُلّاً! وإني لَرَبُّ الإبا
بقلبي سأرمي وجوهَ العَداةِ فقلبي حديدٌ وناري لَظى
وأحمي حِياضي بحدِّ الحسامِ فيعلَمُ قومي بأنّي الفتى
لَعَمْرُكَ هذا مماتُ الرِّجالِ فَمَنْ رامَ موتاً شريفاً فذا ..
فكيفَ اصطِباري لكيدِ العدوِّ وكيفَ احتمالي لسَوْمِ الأذى؟.

* * *

﴿١٥﴾

في ذلك المكانِ، وعلى مرتفعٍ من الأرضِ يطلُّ على بحيرةِ طبريا، وقَفَتْ سيارتانِ تحملان القائد ومجموعةً من الرجالِ .. كان عبدُالرحيم محمود في السيارة الأمامية مع أحدِ القادةِ العراقيين «الملازم

---

(١) الصحصحان: الصحراء / وهي ما استوى من الأرض وكان أجرد. (٢) تناوشه: تأخذ وتقطع لحمه. (٣) جارحات الفلا: طيور الفضاء

مدلول» ينظران من خلالِ المنظار إلى المنطقة المقابلة .. وكان في السيارةِ الثانيةِ المراسلُ الحربيُّ الصحفيُّ «عبدالرزاق بدران» يحملُ على ظهرِهِ آلةَ التصويرِ .. يصوِّرُ بها وقائع المعركة لإرسالها إلى



القائد الشاعر عبدالرحيم محمود والملازم العراقي مدلول ينظران إلى مواقع الأعداء قرب بحيرة طبريا في شمال فلسطين

الصحف العربية والأجنبية[1] وفجأةً دوَّى الانفجار، وسقطت قنبلةُ «هاون» على بُعد مئة مترٍ من السيارات .. ثم وبعد لحظةٍ: انفجرت قنبلةُ «هاون» أُخرى بين السيارتين، أقربُ إلى سيارةِ القائدِ!!

أحسَّ عبدالرزاق بالدمِّ الحارِّ يسيلُ على جبينه، فاندفع خارجَ السيارةِ ليرى الملازمَ العراقي «مدلول» وقد تدفَّقَ الدَّمُ من عنقِهِ وحنجرتِهِ .. نَزَعَ «الكوفيةَ» عن رأسِهِ وألقى بها على عنقِ زميله وضغطَ لإيقافِ الدم بينما واصَلَ التصويرَ!! ولكنَّه ما إن التَفَتَ حوله حتى رأى قائدَهُ عبدالرحيم رافعاً يديه وقد امتلأَ صدرُه بالدَّمِ .. لقد أُصيبَ إصاباتٍ بالغةً في صدرِهِ فارتمى على الصخر!!

هُرِعَ الرجالُ إلى القائِدِ يحملونَه .. لم يَعُدْ أحدٌ يحسُّ بالدماءِ تسيل من جبينه أو عنقه أو رجليه .. حمل الرجال القائد وهو يردد بصوت خافت:

احمِلـوني احمِلـوني ... واحـذَرُوا أَنْ تـتـركـوني
وخـذوني لا تخافـوا ... وإذا مِتُّ ادفِـنـوني ..
يـا فـلسـطينُ وداعـاً ... خالصـاً ...

---

(١) ذكر لنا الأستاذ عبدالرزاق بدران أحداث ذلك النهار كما عاينها وصوَّرها لحظة بلحظة.



القائد الشاعر وقد كسا دمه الأرض بالأرجوان، وأثقل بالعطر ريح الصبا؛ فنام ليحلم حلم الخلود.

وغاب الصوتُ فلم يَعُدْ أحدٌ يسمع ما يقول..

في ثوانٍ معدودة كانت السيارات تهبطُ إلى الطريقِ الرئيسي أسفلَ الجبل، تقصدُ مستشفى قرية الرامة العسكري[1] .. وارتفع صوتُ عبدالرحيم قليلاً.. فأنصت الرجالُ ليسمعوا قوله.. لعلّه كان يوصيهم بمواصلةِ النِّضال.. أو لعلّه كانَ يوصيهم بأبنائـهِ الصغارِ الطيِّب وطلال ورقية.. لعلّه كان يريدُهم أن يُزغردوا ليزفوا روحَه إلى السماء. أو لعلّه كان يقول: ألا تروْن. لقد خضَّبتُ الأرضَ بدمي، وحنَّيتُها بالحنَّاء لليلةِ العرس.. فهل أموتُ راضياً مرضياً؟ وهل أدخلُ الجنَّةَ مع النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء؟.. ألمْ أَسِرْ على خُطى القسَّام وأبي كمال والأبطال الثلاثة والآلافِ غيرِهم من قبلي ومن بعدي؟ فهل سيحمِلُ شعلةَ النضالِ من سيقرأُ قصائدي وسيرةَ نضالي؟..

لم يَعُدْ جسدُ عبدالرحيم ينْبِضُ أو يتحرَّكُ أو يُصدِرُ صوتاً.. ولكنَّ روحَهُ وشِعرَهُ ظلّا يملآن الآفاقَ...

* تمت *

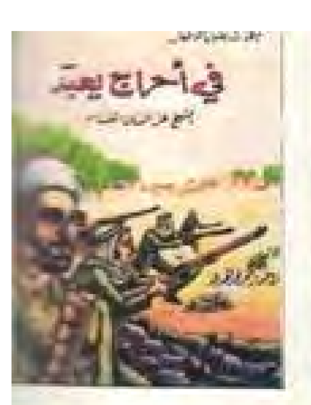
---

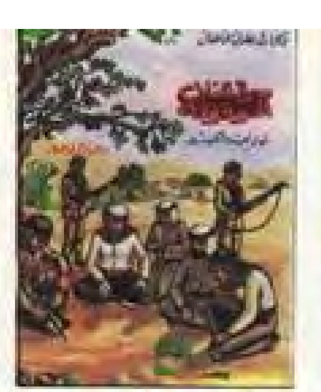
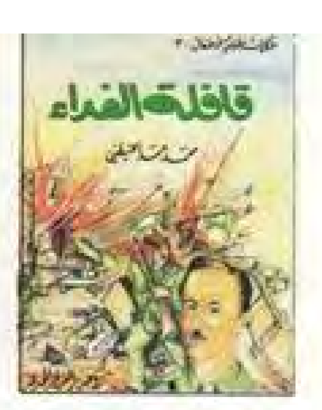
(١) مدير مستشفى الرامة العسكري الدكتور أمين رويحة. وقد أجرى الاسعافات الأولية والعمليات الجراحية للملازم العراقي والمراسل الصحفي والمصاحب بينما نقل القائد الشهيد إلى مدينة الناصرة مباشرة..



المؤلفة في سطور

* ولدت في مدينة يافا في فلسطين، ودرست في مدارس مدينة عمان، ثم نالت الثانوية العامة من مدينة رام الله في الضفة الغربية من الاردن.
* درست في كلية الصيدلة جامعة القاهرة، ثلاث سنوات بنجاح وانقطعت عن الدراسة بسبب حرب ١٩٦٧ حين احتلت اسرائيل الضفة الغربية حيث الاهل.
* حصلت على شهادة الليسانس في الحقوق عام ١٩٧٢ من جامعة بيروت العربية، ثم التحقت لدراسة الماجستير في الجامعة اللبنانية.
* بدأت الكتابة للاطفال عام ١٩٧٩ ولها اليوم سبعة عشر كتابا للاطفال وبعض القصص المطولة.
* عضو اتحاد الكتاب الاردنيين.
* عضو تأسيسي وعضو الهيئة العمومية في المجلس العربي للتنمية والطفولة الذي يرأسه سمو الامير طلال بن عبدالعزيز.
* رئيسة جمعية اصدقاء الاطفال في الاردن.
* عضو الرابطة الوطنية لتربية وتعليم الاطفال. وعضو مؤازر في جمعيات خيرية ونوادي اجتماعية في عمان.
* تساهم في تحرير مجلة الاطفال الاردنية «وسام»، الصادرة عن وزارة الثقافة والتراث القومي.
* تعمل محررة مسؤولة عن ملحق الطفل الاسبوعي في جريدة الدستور الاردنية.
* تشارك في ندوات ومؤتمرات ومعارض كتب الاطفال على مستوى الوطن العربي.
* عضو في مؤسسة IBBY وهي المؤسسة الدولية لكتب الشباب والاطفال ومقر سكرتاريتها في سويسرا.
* نالت جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية عن كتابها «قافلة الفداء».
* نالت درع سلاح الجو الملكي الاردني عن كتابها «اسد فوق حيفا».
* متزوجة منذ عام ١٩٦٧ من المهندس حسام الدين طاهر الهدهد، ولها اربعة ابناء ذكور وبنت واحدة.

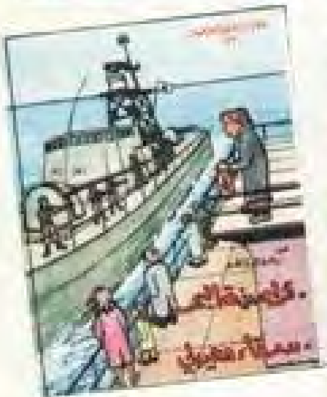
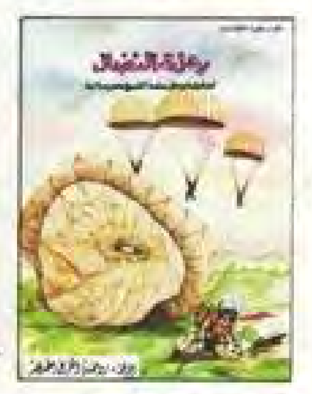


كُتبٌ صَدَرَت للمُؤلفة





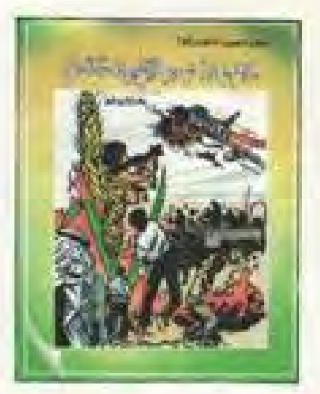
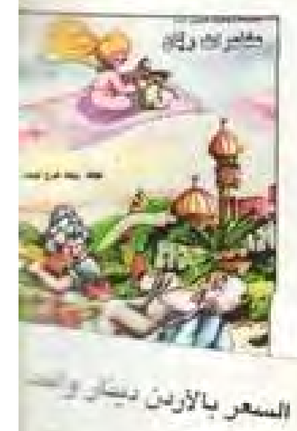












السعر بالأردن دينار وا...